

الفصل الثاني إنشاء الأحياء

المبحث الأول النفخ في الصور

هذا الكون العجيب الغريب الذي نعيش فيه ، يعج بالحياة والأحياء الذين نشاهدهم والذين لا نشاهدهم ، وهم فيه في حركة دائبة لا تهدأ ولا تتوقف ، وسيبقى حاله كذلك إلى أن يأتي اليوم الذي يهلك الله فيه جميع الأحياء إلا من يشاء ، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (١) ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (٢) .

وعندما يأتي ذلك اليوم ينفخ في الصور ، فتتهي هذه النفخة الحياة في الأرض والسماء ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ (٣) .

وهي نفخة هائلة مدمرة يسمعها المرء فلا يستطيع أن يوصي بشيء ، ولا يقدر على العودة إلى أهله وولادته ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ (٤) ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤) .

(١) سورة الرحمن : ٢٦ .

(٢) سورة القصص : ٨٨ .

(٣) سورة الزمر : ٦٨ .

(٤) سورة يس : ٤٨ .

وفي الحديث : « ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ، ورفع ليتها^(١) ، قال : وأوّل من يسمعه رجل يلوط حوض إبله . قال : فيصعق ويصعق الناس^(٢) .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن سرعة هلاك العباد حين تقوم الساعة ، فقال : « ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه ، فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها^(٣) .

(١) أصغى : أمال : والليت : صفحة العنق .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب خروج الدجال : (٢٢٥٩/٤) ورقمه : ٢٩٤٠ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب . . . تصدقوا ، فتح الباري : (٨٢/١٣) عن أبي هريرة . ورواه في كتاب الرقاق ، فتح الباري (٣٥٢/١١) .

المَبْحَثُ الثَّانِي الصُّورُ الَّذِي يَنْفَخُ فِيهِ

الصُّورُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ الْقَرْنَ ، وَقَدْ سئِلَ الرَّسُولَ ﷺ عَنِ الصُّورِ ، فَفَسَّرَهُ بِمَاتَعَرَفَهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا ، فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ وَسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ ، وَسُنَنِ ابْنِ حِبَّانَ ، وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ ، وَمُسْتَدْرَكَ الْحَاكِمِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : « مَا الصُّورُ ؟ » قَالَ : الصُّورُ قَرْنٌ يَنْفَخُ فِيهِ »^(١) قَالَ الْحَاكِمُ : صَحِيحُ الْإِسْنَادِ ، وَوَافِقُهُ الذَّهَبِيُّ ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ فِيهِ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

وَذَكَرَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَرَأَ (الصُّورَ) ، جَمْعَ صُورَةٍ ، وَتَأَوَّلَهُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ النَّفْخَ فِي الْأَجْسَادِ لِتَعَادِ إِلَيْهَا الْأَرْوَاحَ .

وَنَقَلَ عَنِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَالْكَلْبِيِّ أَنَّ (الصُّورَ) بِسُكُونِ الْوَاوِ جَمْعُ صُورَةٍ ، كَمَا يُقَالُ : سُورَ الْمَدِينَةَ جَمْعُ سُورَةٍ ، وَالصُّوفُ جَمْعُ صُوفَةٍ ، وَيَسُرُّ جَمْعُ بَسْرَةٍ .
وَقَالُوا : الْمُرَادُ النَّفْخَ فِي الصُّورِ وَهِيَ الْأَجْسَادُ ، لِتَعَادِ فِيهَا الْأَرْوَاحَ وَمَا ذَكَرُوهُ خَطَأً مِنْ وَجْهِهِ :

الْأَوَّلُ : أَنَّ الْقِرَاءَةَ الَّتِي نَسَبَتْ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ لَا تَصَحُّ نَسْبَتِهَا إِلَى الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَحْتَجُّ بِقِرَاءَتِهِمْ .

الثَّانِي : أَنَّ (صُورَةً) تَجْمَعُ عَلَى (صُورٍ) ، وَلَا تَجْمَعُ عَلَى (صُورٍ) كَمَا ادَّعَى

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٦٨/٣) ، ورقمه : ١٠٨٠ .

أبو عبيدة والكلبي ، قال تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ ﴾ (١) ، ولم يعرف
عن أحد من القراء أنه قرأها : فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ

الثالث : أن الكلمات التي ذكرها ليست بجموع وإنما هي أسماء جموع
يفرق بينها وبين واحدتها بالتاء .

الرابع : أن هذا القول خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة ، فالذي عليه
أهل السنة والجماعة أن الصور بوق ينفخ فيه .

الخامس : أن هذا القول مخالف لتفسير الرسول ﷺ ، حيث فسره بالبوق ،
ومخالف للأحاديث الكثيرة الدالة على هذا المعنى .

السادس : أن الله تعالى قال : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (٢) ، فقد
أخبر الحق أنه ينفخ في الصور مرتين ، ولو كان المراد بالصور النفخ في الصور التي
هي الأبدان لما صح أن يقال : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ (٢) ، لأن الأجساد تنفخ فيها
الأرواح عند البعث مرة واحدة (٣) .

وما ذكره بعض أهل العلم من أن الصور من ياقوته أو من نور فلا نعلم في
ذلك حديثا صحيحا ، والله أعلم .

(١) سورة غافر : ٦٤ .

(٢) سورة الزمر : ٦٨ .

(٣) راجع في هذه المسألة : تذكرة القرطبي : ١٨٢ ، ١٨٥ . فتح الباري (١١/٣٦٧) . لسان
العرب : (٤٩٣/٢) .

المبحث الثالث

النفاخ في الصور

قال ابن حجر العسقلاني : « اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل عليه السلام ، ونقل فيه الخليمي الإجماع ، ووقع التصريح به في حديث وهب بن منه ، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي ، وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه ، وكذا في حديث الصور الطويل »^(١) .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن صاحب الصور مستعد دائما للنفاخ فيه منذ أن خلقه الله تعالى ، ففي مستدرك الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن طَرْفَ صاحب الصور منذ وُكِّلَ به مستعد ينظر نحو العرش ، مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طَرْفه ، كأن عينيه كوكبان دُرَيان » قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي^(٢) .

وفي هذا الزمان الذي اقتربت فيه الساعة ، أصبح إسرافيل أكثر استعدادا وتهيؤا للنفاخ في الصور ، فقد روى ابن المبارك في الزهد ، والترمذي في سننه ، وأبو نعيم في الحلية ، وأبو يعلى في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرک ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم ، وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر أن

(١) فتح الباري (٣٦٨/١١) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٦٥/٣) ، ورقمه (١٠٧٨) .

ينفخ ، فينفخ . قال المسلمون : فكيف نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا :
حسبنا الله ونعم الوكيل ، توكلنا على الله ربنا « وقال الترمذي : حديث حسن ،
وقد ذكر الشيخ ناصر رواته من الصحابة وطرقه ومتابعاته وشواهده في « سلسلة
الأحاديث الصحيحة » بما يدلُّ على صحته (١) .

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٦٦/٣) ، ورقمه : (١٠٧٩) .

المَبْحَثُ الرَّابِعُ اليَوْمُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ النَّفْخَةُ

تقوم الساعة في يوم الجمعة ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة »^(١) .

وفي حديث آخر أخبر الرسول ﷺ أن الساعة تقوم في يوم الجمعة ، وفيها يبعث العباد أيضا ، فعن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصُّعْقَةُ ، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليّ » رواه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، والبيهقي في « الدعوات الكبير »^(٢) . وفي « مسند الطبراني الأوسط » ، و« الحلية » لأبي نعيم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عرضت عليّ الأيام ، فعرض عليّ فيها يوم الجمعة ، فإذا هي كمرآة بيضاء في وسطها نكتة سوداء ، فقلت : ماهذه ؟ قيل : الساعة »^(٣) .

(١) مشكاة المصابيح : (٤٢٧/١) ، ورقمه : (١٣٥٦) .

(٢) مشكاة المصابيح : (٤٣٠/١) ، ورقمه : (١٣٦١) ، وقال - محقق المشكاة في إسناده عند أبي داود :

صحيح ، وصححه جماعة .

(٣) رمز الشيخ ناصر للحديث بالصحة في صحيح الجامع : (٣١/٤) ، ورقمه (٣٨٩٥) وأورد طرقه في

سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥٦٨/٤) ، ورقمه (١٩٣٠) .

ولما كانت الساعة تقع في هذا اليوم فإن المخلوقات في كل يوم جمعة تكون مشفقة خائفة إلا الإنس والجن ، ففي موطأ الإمام مالك ، وسنن أبي داود ، وسنن الترمذي والنسائي ، ومسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه هبط ، وفيه تيب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، ومامن دابة إلا وهي مصيخة^(١) ، يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس ، شفقا من الساعة ، إلا الجن والإنس »^(٢) .

(١) منتظرة قيام الساعة .

(٢) مشكاة المصابيح : (٤٢٨/١) ورقية (١٣٥٩) وعزاه محقق المشكاة إلى الموطأ والترمذي . وقال الترمذي فيه : حسن صحيح .

المَبْحَثُ الخَامِسُ كَمْ مَرَّةً يَنْفَخُ الصُّورُ ؟

الذي يظهر أن إسرافيل ينفخ في الصور مرتين ، الأولى يحصل بها الصعق ، والثانية يحصل بها البعث ، قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (١) .
وقد سمي القرآن النفخة الأولى بالراجفة ، والنفخة الثانية بالرادفة ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ (٢) .

وفي موضع آخر سمي الأولى بالصيحة ، وصرح بالنفخ بالصور في الثانية ، قال تعالى : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٦١﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ (٣) .

وقد جاءت الأحاديث النبوية مصرحة بالنفختين ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما بين النفختين أربعون » . قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوماً ؟ قال : أبيت . قال : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ؟ قال أبيت » (٤) .

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ

(١) سورة الزمر : ٦٨ .

(٢) سورة النازعات : ٦ - ٧ .

(٣) سورة يس : ٤٩ - ٥١ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الزمر ، فتح الباري : (١١/٥٥١) .
ورواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٧٠) ، ورقمه : ٢٩٥٥ .

يقول : « ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا ، ورفع لينا^(١) ، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قال : فيصعق ، ويصعق الناس ، ثم يرسل الله - أو قال : ينزل الله مطرا ، كأنه الظلُّ ، أو الظلُّ ، (نعمان^(٢) الشاك) فتنتب منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »^(٣) .

وأخرج البيهقي بسند قوي عن ابن مسعود موقوفا : « ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض ، فينفخ فيه ، والصور قرن ، فلا يبقى خلق في السموات ولا في الأرض إلا مات إلا من شاء ربك ، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون »^(٤) .

وروى أوس بن أوس الثقفي عن الرسول ﷺ قال : « إن أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه الصعقة وفيه النفخة »^(٥) ، وقد أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم^(٦) .

وقد رجح هذا الذي دلت عليه هذه الآيات والأحاديث التي سقناها جمع من أهل العلم ، منهم القرطبي^(٧) ، وابن حجر العسقلاني^(٨) .

وذهب جمع من أهل العلم إلى أنها ثلاث نفخات ، وهي نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث .

(١) الليت : صفحة العنق ، وإصغاؤه : إمالته .

(٢) هو نعمان بن سالم أحد رواة هذا الحديث .

(٣) رواه مسلم : (٢٢٥٨/٤) ، ورقمه : ٢٩٤٠ .

(٤) فتح الباري : (٣٧٠/١١) .

(٥) فتح الباري : (٣٧٠/١١) .

(٦) فتح الباري : (٣٧٠/١١) .

(٧) التذكرة للقرطبي : ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٨) فتح الباري : (٣٦٩/١١) .

وعن ذهب هذا المذهب ابن العربي^(١) ، وابن تيمية^(٢) ، وابن كثير^(٣) ،
والسفاريني^(٤) . وحجة من ذهب هذا المذهب أن الله ذكر نفخة الفزع في قوله :
﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ
اللَّهُ ﴾^(٥) .

كما احتجوا ببعض الأحاديث التي نصت على أن النفخات ثلاث ، كحديث
الصور ، وهو حديث طويل ، أخرجه الطبري ، وفيه : « ثم ينفخ في الصور ثلاث
نفخات ، نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام لرب العالمين »^(٦) .

أما استدلالهم بالآية التي تذكر نفخة الفزع فليست الآية صريحة على أن هذه
نفخة ثالثة ، إذ لا يلزم من ذكر الحق تبارك وتعالى للفزع الذي يصيب من في
السموات والأرض عند النفخ في الصور أن تجعل هذه نفخة مستقلة ، فالنفخة
الأولى تفزع الأحياء قبل صعقهم ، والنفخة الثانية تفزع الناس عند بعثهم .

يقول ابن حجر رحمه الله تعالى : « ولا يلزم من مغايرة الصعق الفزع أن لا
يحصلا معا من النفخة الأولى »^(٧) ، وجاء في تذكرة القرطبي : « ونفخة الفزع هي
نفخة الصعق ، لأن الأمرين لازمين لها ، أي فزعوا فزعاً ماتوا منه »^(٨) .

أما حديث الصور فهو حديث ضعيف مضطرب كما يقول الحجة في علم

(١) فتاوي شيخ الإسلام : (٢٦٠/٤) .

(٢) فتح الباري (٣٦٩/١١) ، تذكرة القرطبي : ص ١٨٤ .

(٣) النهاية لابن كثير : (٢٥٣/١) .

(٤) لوامع الأنوار البهية : (١٦١/٢) .

(٥) سورة النمل : (٨٧) .

(٦) فتح الباري : (٣٦٩/١١) .

(٧) فتح الباري : (٣٦٩/١١) .

(٨) تذكرة القرطبي : ١٨٤ .

الحديث ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى ، ونقل تضعيفه عن البيهقي (١) .

وذهب ابن حزم رحمه الله تعالى إلى « أن نفخات يوم القيامة أربع : الأولى نفخة إمامة ، والثانية نفخة إحياء ، يقوم بها كل ميت ، وينشرون من القبور ، ويجمعون للحساب .

والثالثة : نفخة فزع وصعق ، يفيقون منها كالمغشى عليه ، لا يموت منها أحد . والرابعة : نفخة إفاقة من ذلك الغشى » (٢) .

قال ابن حجر بعد أن حكى مقالة ابن حزم : « هذا الذي ذكره من كون الثنتين أربعاً ليس بواضح ، بل هما نفختان فقط ، ووقع التغاير في كل واحد منهما باعتبار من يستمعهما ، فالأولى يموت فيها كل من كان حياً ، ويغشى على من لم يموت عن استئنى الله . والثانية : يعيش بها من مات ، ويفيق بها من غشى عليه ، والله أعلم » (٣) .

(١) فتح الباري : (١١/٣٦٩) .

(٢) فتح الباري : (٦/٤٤٦) .

(٣) فتح الباري : (٦/٤٤٦) .

المبحث السادس الذين لا يُصعقون عند النفع في إصوَر

أخبرنا الباري جلّ وعلا أن بعض من في السموات ومن في الأرض لا يصعقون عندما يصعق من في السموات ومن في الأرض ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ (١).

وقد اختلف العلماء في تعيين الذين عناهم الحق بالاستثناء في قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ .

١ - فذهب ابن حزم إلى أنهم جميع الملائكة ، لأن الملائكة في اعتقاده أرواح لا أرواح فيها ، فلا يموتون أصلاً (٢) .

وهذا الذي ذهب إليه من أن الملائكة لا يموتون لا يُسَلِّمُ له ، فالملائكة خلق من خلق الله تبارك وتعالى ، وهم عبيد مربوبون مقهورون ، خلقهم ، وهو قادر على إمامتهم وإحيائهم ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه ، وعن غير واحد من الصحابة أنه قال : « إن الله إذا تكلم بالوحي أخذ الملائكة منه مثل الغشي » ، وفي رواية : « إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا » فأخبر في هذا الحديث أنهم يصعقون صعق الغشي ، فإذا جاز عليهم صعق الغشي ، جاز عليهم صعق الموت (٣) .

(١) سورة الزمر : ٦٨ .

(٢) فتح الباري : (٣٧١/٦) .

(٣) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٦٠/٤) .

٢ - وذهب مقاتل وغيره إلى أنهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت^(١) .
وأضاف إليه بعض أهل العلم جملة العرش^(٢) .
وصحة هذا متوقف على أحاديث رووها ، وأهل العلم بالحديث لا يصححون
مثلها^(٣) .

٣ - وذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أن المراد بهم الذين في الجنة من الحور
العين والولدان ، وأضاف إليهم أبو إسحق بن شاقلا من الحنابلة ،
والضحاك بن مزاحم خزان الجنة والنار وما فيها من الحيات والعقارب^(٤) .
يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : « وأما الاستثناء فهو متناول لما في الجنة من
الحور العين ، فإن الجنة ليس فيها موت »^(٥) .

٤ - وقد جنح أبو العباس القرطبي صاحب « المفهم إلى شرح مسلم » إلى أن المراد
بهم الأموات كلهم ، لكونهم لا إحساس لهم ، فلا يصعقون^(٦) .

وما ذهب إليه أبو العباس صحيح إذا فسرنا الصعق بالموت ، فإن الإنسان
يموت مرة واحدة ، قال تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾^(٧) .
وقد عقد ابن القيم في كتابه : « الروح » فصلاً بين فيه أن أهل العلم قد
اختلفوا في موت الأرواح عند النفخ في الصور .

(١) الروح لابن القيم : ص ٥٠ ، وفتح الباري : (٣٧١/٦) .

(٢) فتح الباري : (٣٧١/٦) .

(٣) راجع فتح الباري : (٣٧١/٦) .

(٤) الروح لابن القيم : ص ٥٠ ، وفتح الباري : (٣٧١/٦) .

(٥) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٦١/٤) .

(٦) فتح الباري : (٣٧٠/٦) .

(٧) سورة الدخان : ٥٦ .

والذي رجحه ابن القيم أن موت الأرواح هو مفارقتها للأجساد ، وخروجها منها ، ورد قول الذين قالوا بفناء الأرواح وزوالها ، لأن النصوص دلت على أن الأرواح تبقى في البرزخ معذبة أو منعمة (١) .

أما إذا فسرنا الصعق بالغشى ، فإن الأرواح تصعق بهذا المعنى ولا تكون داخلية فيمن استثنى الله تبارك وتعالى ، فإن الإنسان قد يسمع أو يرى ما يفزعها ، فيصعق ، كما وقع لموسى عندما رأى الجبل قد زال من مكانه ﴿ وَنَحَرَ مُوسَى صَعَقًا ﴾ (٢) .

وقد جاء هذا المعنى صريحا في بعض النصوص ، ففي حديث أبي هريرة ، عن البخاري قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تخيرونى على موسى ، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله » (٣) .

ورواه البخاري أيضا عن أبي هريرة بلفظ « إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش ، فلا أدري ، أذلك كان ، أم بعد النفخة » (٤) .

ورواه في موضع ثالث بلفظ : « فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن أفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله » (٥) .

(١) الروح ، لابن القيم : ص ٤٩ .

(٢) سورة الأعراف : ١٤٣ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب وفاة موسى ، فتح الباري : (٤٤١/٦) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الزمر ، فتح الباري : (٥٥١/٨) .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب النفخ في الصور ، فتح الباري : (٣٦٧/١١) .

وهذا الحديث صريح في أن الموق يصعقون ، فإذا كان رسول الله ﷺ وهو سيد المرسلين يصعق ، فغيره أولى بالصعق .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يصعق صعق غشى هم الشهداء دون غيرهم من الأموات ، وأضاف إليهم آخرون من الأنبياء .

والسر في قصر هذا على الشهداء والأنبياء - كما يقول شيخ القرطبي : أحمد ابن عمر - « أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء في الدنيا ، وإذا كان هذا حال الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى ، مع أنه قد صح عن النبي ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأن النبي ﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس ، وفي السماء ، وخصوصا بموسى ، وقد أخبرنا النبي ﷺ أن الله تبارك وتعالى يرُدُّ عليه روحه ، حتى يرد السلام على كل من يسلم عليه ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندرکہم ، وإن كانوا موجودين أحياء . . . وإذا تقرر أنهم أحياء ، فإذا انفخ في الصور نفخة الصعق ، صعق كل من في السموات ومن في الأرض ، إلا من شاء الله » (١) .

وذهب إلى أن الشهداء والأنبياء يصعقون صعق غشى البيهقي فقال في صعق الأنبياء : « ووجهه عندي أنهم أحياء عند ربهم كالشهداء ، فإذا انفخ في الصور النفخة الأولى صعقوا ، ثم لا يكون ذلك موتا في جميع معانيه ، إلا في ذهاب الاستشعار ، وقد جوز النبي ﷺ أن يكون موسى ممن استثنى الله ، فإن كان منهم فإنه لا يذهب استشعاره في تلك الحالة بسبب ما وقع في صعقة الطور » (٢) .

(١) تذكرة القرطبي : ١٦٩ .

(٢) فتح الباري : (٣٧١/١١) .

وبناء على هذا الفقه يكون الأنبياء والشهداء من الذين يصعقون ، ولا يكونون داخلين في الاستثناء ، وقد نقل عن ابن عباس وأبي هريرة وسعيد بن جبير أن الأنبياء والشهداء من الذين استثناهم الله^(١) ، وعزاه ابن حجر إلى البيهقي^(٢) ، فإن كان المراد استثنائهم من الموت فإن هذا حق ، وإن كان المراد استثنائهم من الصعق الذي يصيب الأموات كما دل عليه حديث موسى فالأمر ليس كذلك .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأولى بالمسلم التوقف في تعيين الذين استثناهم الله ، لأنه لم يصح في ذلك نص يدل على المراد .

قال القرطبي صاحب التذكرة : « قال شيخنا أبو العباس : والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح ، والكل محتمل »^(٣)

وقال ابن تيمية : « وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين ، فإن الجنة ليس فيها موت ، ومتناول لغيرهم ، ولا يمكن الجزم بكل ما استثناه الله ، فإن الله أطلق في كتابه . . . والنبي ﷺ قد توقف في موسى ، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا ؟

فإذا كان النبي ﷺ لم يُخبر بكل من استثنى الله ، لم يمكننا نحن أن نجزم بذلك ، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء ، وأمثال ذلك مما لم يخبر الله به ، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر ، والله أعلم »^(٤) .

(١) الروح لابن القيم : ٥٠ .

(٢) فتح الباري : (٣٧١ / ١١) .

(٣) التذكرة : ص ١٦٧ .

(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٦١ / ٤) .

ونقل القرطبي عن الحلبي أنه أبو أن يكون المستنون هم حملة العرش أو جبرائيل وميكائيل وملك الموت ، أو الولدان والخور العين في الجنة ، أو موسى ، ثم بين سر إنكاره لهذا فقال : « أما الأول ، فإن حملة العرش ليسوا من سكان السموات ولا الأرض ، لأن العرش فوق السموات كلها ، فكيف يكون حملته في السموات .

وأما جبرائيل وميكائيل وملك الموت فمن الصافين المسيحين حول العرش ، وإذا كان العرش فوق السموات ، لم يكن الاصطفاف حوله في السموات . وكذلك القول الثاني لأن الولدان والخور العين في الجنان ، والجنان وإن كان بعضها أرفع من بعض ، فإن جميعها فوق السموات ودون العرش ، وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء ، فلا شك أنها بمعزل عما خلق الله تعالى للفناء ، وصرفه إلى موسى لا وجه له ، لأنه قد مات بالحقيقة ، فلا يموت عند نفخ الصور ثانية » (١) .

ورد قول الذين قالوا المستنون هم الأموات « لأن الاستثناء إنما يكون لمن يمكن دخوله في الجملة ، فأما من لا يمكن دخوله في الجملة فيها ، فلا معنى لاستثناءه منها ، والذين ماتوا قبل نفخ الصور ليسوا بفرض أن يصعقوا فلا وجه لاستثناءهم » (٢) .

والذي اختاره أن الغشية التي تصيب موسى ليست هي الصعقة التي تهلك الناس وتميتهم ، وإنما هي صعقة تصيب الناس في الموقف بعد البعث ، على أحد الاحتمالين عنده .

ونقل القرطبي عن شيخه أحمد بن عمر أنه ذهب هذا المذهب ، قال

(١) التذكرة للقرطبي : ص ١٦٨ .

(٢) التذكرة : ص ١٦٨ .

القرطبي : « قال شيخنا أحمد بن عمر : وظاهر حديث النبي ﷺ يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية نفخة البعث ، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق ، ولما كان هذا قال بعض العلماء ، يحتمل أن يكون موسى عليه السلام ممن لم يميت من الأنبياء ، وهذا باطل ، بما تقدم من ذكر موته .

وقال القاضي عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشر ، حين تنشق السموات والأرض فتستقل الأحاديث والآيات والله أعلم » (١) .

وقد جزم ابن القيم رحمه الله تعالى بأن الصعقة التي تحدت عنها الرسول ﷺ ، هي صعقة تكون بعد البعث ، وهي المرادة بقوله تعالى : ﴿ فَذَرَّهُمْ حَتَّىٰ يَلْتَفِتُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ (٢) (٣) والله أعلم بالصواب .

(١) التذكرة : ص ١٦٨ .

(٢) سورة الطور : ٤٥ .

(٣) الروح : ص ٥٢ .